109

الأبحاث والدراسات

التعليم وحركة التحول التاريخي في منطقة عسير خلال القرن (١٤ هـ / ٢٠ م) (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

دراسة منشورة في كتاب : دراسات في تاريخ وحضارة جنوبي البلاد السعودية. لغيثان بن جريس (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٤ هـ/٢٠١٣م). (الجزءان الأول والثاني)، ص ص ٧١ – ٩٨ .

الدراسة الثالثة

التعليم وحركة التحول التاريخي في منطقة عسير خلال القرن (١٤ هـ / ٢٠ م) [١]

(١) تم الحديث حول هذا الموضوع في منتدى نادي أبها الأدبي في آخر شهر شوال عام (١٤١٨ هـ) . ثم نشر على صفحات مجلة بيادر الصادرة من النادي نفسه عدد (٢) (١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م) ص ٢٩ – ٤٦ .

تعددت طرق ومناهج تدوين التاريخ والحضارات عند الشعوب السابقة على ظهور الإسلام، وكذلك في العصور الإسلامية المبكرة، مثلما تعددت مصادر جمع المادة العلمية التاريخية. ومن تلك المصادر ولعل من أهمها التدوين عن طريق الرواية الشفاهية، وربما سجلت الرواية لتصبح مذكرة مكتوبة وغير منشورة [1] . وهذا ما أردنا فعله في الصفحات التالية لنؤرخ لحقبة زمنية عاشتها حاضرة أبها ، من جهة كونها عاصمة منطقة عسير، خلال العقود المتوسطة من القرن الرابع عشر الهجري (القرن العشرين الميلادي). وذلك عندما التقينا بأحد رجال مدينة أبها، وهو الأستاذ/يحيى بن حسن بن مستور[2]، وطلبنا منه تزويدنا ببعض المعارف السياسية والحضارية لتاريخ مدينة أبها خاصة ومنطقة عسير عامة، وقد تجاوب معنا شفاهة، ثم دون الكثير من المعلومات وفي مجالات مختلفة، وبالتالي نشرنا

---

(١) الرواية الشفاهية من أهم المصادر في تدوين علمي الحديث والتاريخ عند المسلمين ، لكن الأهم في الرواية هو التأكد من صحة سندها ، ومن صدق الراوي في روايته ؛ ولهذا نجد علماء الحديث قد وضعوا صفات ومعايير لراوي الأحاديث عن طريق علم الإسناد ، بل دونت المؤلفات العديدة في علم الجرح والتعديل ، وكذلك في علم الإسناد. أما علم التاريخ فلم يحظ بالرعاية والاجتهاد وصحة التدوين مثلما حظى به علم الحديث عند المسلمين الأوائل.

(٢) هو يحيى بن حسن مستور آل محيا من مواليد مدينة أبها عام (١٣٤٩هـ) ، تدرج في العديد من المناصب الإدارية بحاضرة أبها ، ولازال على قيد الحياة متمتعا بصحة جيدة ، ويزاول بعض الأعمال التجارية. أوردنا له ترجمة في حاشية رقم (٣٦) من الفصل الأول في كتابنا : أبها حاضرة عسير ... دراسة وثائقية . كما يوجد في مكتبتنا عدة وثائق توضح حياته العلمية ، وتوجد ضمن وثائقنا تحت رقم (٢١٠٠).

الكثير من مذكراته في مؤلفين مختلفين هما : (تاريخ التعليم في منطقة عسير [(١٣٥٤- ١٣٨٦هـ/١٩٣٤- ١٩٦٦م)[١] . الجزء الأول]. وكتاب (أبها حاضرة عسير... دراسة وثائقية) [٢] ، وبقي لدينا معلومات قيمة لم تنشر في الدراستين السابقتي الذكر، ولأهميتها التاريخية والحضارية لمنطقة عسير عامة ولمدينة أبها بصفة خاصة ، ثم لتغطيتها لجوانب لم نعد نعرف عنها شيئاً منذ الثلاثينيات إلى التسعينيات في القرن الهجري الماضي (العشرين الميلادي)[٣] ، ورأينا إيرادها في الصفحات التالية ، مع العلم أننا سوف ننشرها كما وصلتنا من الأستاذ/ ابن مستور ، مع إجراء بعض التعديلات المحدودة كي يستقيم معناها، إلى جانب تزويدها بسلسلة من الحواشي والتعليقات حتى تعم الفائدة على جميع القراء الكرام.

يورد ابن مستور قوله : " **بعد سقوط الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الثانية ، وانسحاب متصرفها من عسير في بداية عام (١٣٣٦هـ)، وتسليمها الحكم للأمراء المحليين، وما نتج عن تحول الحكم من دولة مكنتها قواتها من السيطرة ليس على عسير فحسب ، بل على كافة أطراف الجزيرة العربية وخلافها كما هو معلوم ومدون في التواريخ إلى سلطة أصغر ذات إمكانات محدودة، لاسيما وأنها في عهد الدولة العثمانية كانت تعيش في**

(١) هذا الكتاب طبع في مدينة جدة ، بمطابع دار البلاد عام (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).

(٢) هذا الكتاب طبع في مدينة الرياض ، بمطابع الفرزدق عام (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

(٣) يوجد صورة من هذه الأوراق ضمن أوراق مكتبة الباحث رقم (٢٢٤٥).

الظل[1] ، وفجأة وجدت نفسها ليس فقط خارج الظل، بل في الصفوف الأمامية في ظل هذه الظروف ، وفي خضم هذه الأجواء المشحونة بالتوترات اجتاحت المنطقة عاصفة هوجاء من القلاقل والفتن احتواها وعمل على تهدئتها انضمامها للحكم السعودي ، كما هو معلوم فاستقرت الأمور، وهدأت عاصفة الاضطرابات ، وصارت الأمور بحمد الله ، ثم بحسن توجيه وإدارة من كان يوفدهم جلالة الملك عبد العزيز آل سعود (رحمة الله) من الأمراء، والقضاة، والدعاة ، والمصلحين أصبحت الأمور تسير من حسن إلى أحسن[2] .

فبعد استتباب الأمن، وقطع دابر الجريمة بإقامة الحدود على قُطّاع الطرق، وتحكيم شرع الله فيهم من قبل السلطات السعودية اتجهت جهود المخلصين من السلطات السعودية إلى الإصلاح، وبناء ماتهدم من كيان المجتمع

---

(١) للمزيد من التفصيلات عن أوضاع منطقة عسير قبل وأثناء الحكم العثماني ، انظر : علي أحمد عيسي عسيري. عسير من ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م - ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م (ابها : نادي أبها الأدبي ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ص١٢ ومابعدها ؛ غيثان بن علي بن جريس . صفحات من تاريخ عسير (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٤هـ /١٩٩٤م) الطبعة الثانية ، الجزء الأول ، ص ١٣ ومابعدها. للمؤلف نفسه " وثائق من عسير خلال الحكم العثماني (١٢٨٩- ١٣٣٧هـ) مجلة العرب جـ٣- ٤ (سنة /٢٨) (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص١٥٤ - ١٧٠.

(٢) هناك العديد من الكتب المنشورة التي بينت أوضاع شبه الجزيرة العربية قبل توحيد المملكة العربية السعودية ، ووضحت أيضاً ما كان يسود البلاد من الفتن والقلاقل والأضطرابات، كما يوجد لدى الباحث مئات الوثائق (غير المنشورة) والتي تصورذ ذلك العصر وخاصة في جنوبي البلاد السعودية.

العسيري في الفترة الانتقالية[1]، فاتخذت الخطوات التالية لسير انطلاق قافلة التعليم فبدأت كالتالي :

١ - قام كل من القضاة محمد بن إسماعيل ، والشيخ فيصل آل مبارك، والشيخ سليمان بن جمهور والشيخ عبد العزيز الثميري الذين شغلوا القضاء في أواخر الأربعينيات[2] ، وخلال الخمسينيات من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) ، بالإضافة إلى خِطب الجمعة التي تقام أسبوعيا بحلقة درس خاصة لطلاب العلم، منهم من أقامها في داره كإبن جمهور كما حدثني بذلك عبدالله بن محمد بن زياد (رحمه الله) الذي قال لي إنه كان يعطيهم درسا يوميا في داره بعد العصر ويغريهم بالحضور، ويربطهم بالدرس فيعطيهم شهريا مكافأة نقدية ، ومن المؤكد أنها من المالية بأمر من الحكومة كتشجيع، ومنهم من أقامها بالمسجد، وأحياناً في شكل مواعظ أسبوعية في الأسواق، وأماكن تجمع الناس واستمر الأمر على هذا المنوال آخذا في التوسع في حلقات الدرس اليومية والمتعددة طيلة أيام الأسبوع وكانت حلقة الدرس

---

(١) تعرضت بعض المؤلفات إلى الأساليب التي اتخذت في محاربة الفوضى والفتن في بداية الدولة السعودية الحديثة ، ومن تلك المؤلفات ، كُتب خير الدين الزركلي ، وفؤاد حمزة ، وحافظ وهبة ، وأمين الريحاني وغيرهم.

(٢) للمزيد من التفصيلات عن أولئك القضاة انظر كتاب : شذا العبير من تراجم علماء وأدباء ومثقفي منطقة عسير في الفترة مابين ١٢١٥- ١٤١٥(منشورات نادي أبها الأدبي ، ١٤١٥هـ) ، وانظر كتابنا : بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (أبها : مكابع مازن ، ١٤١٣هـ) ص ١٦٨ ومابعدها ، كما انظر الكتاب نفسه في طبعته الثانية عام (١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م) .

المفتوحة بحضور الأمير تحت قصر الإمارة آنذاك في أعلى ساحة السوق التي استمرت خلال الستينيات والسبعينيات وربما جانب من الثمانينيات[1] .

٢ - خلال الأربعينيات وأوئل الخمسينيات قامت الجهات المعنية هنا متمثلة في الإمارة والمالية وربما القضاة بإيجاد مدرسة " كتاب " مكونة من ناصر بن فرج من رجال ألمع[2]، وعبد الرحمن المطوع من حجاز عسير[3]، والبواب عبدالله السقا لتعليم الأولاد القراءة والكتابة على الطريقة البدائية القديمة بدءا بالحروف، ثم تركيب الكلمات مرورا بالحركات : الرفع والنصب والكسر والسكون،ثم الانتقال لتلاوة القرآن ، وهذا ماكان سائدا في الجزيرة العربية، وخلافها وربما بعض الأرقام الحسابية البسيطة. وكانت تلك المدرسة عبارة عن فصلين أول وفيه

---

(١) ويعد الشيخ عبد الله بن يوسف الوابل من أكثر العلماء الذين بذلوا مافي وسعهم من أجل تعليم الناس أمور دينهم، فلقد كان يقضي جل نهاره وجزءاً من ليله في خدمة الدين وتعليم الناس ماجهلوا في دينهم ، كما كان يقيم حلقات الدروس المتتالية في المسجد وكذلك في منزله . أيضا الشيخ عبد الله القرعاوي بذل جهوداً جبارة في توعية الناس وتدريسهم أمور الدين ، كما بذلوا جهوداً أخرى في نشر المدارس بالمنطقة الجنوبية بهدف تعليم الناس أمور العقيدة والجوانب الشرعية الأخرى. للمزيد من التفصيلات ، انظر: كتاب شذا العبير ، ص ٢١٧، وانظر كتابنا : تاريخ التعليم بمنطقة عسير ١٣٥٤- ١٣٨٦هـ / ١٩٣٤- ١٩٦٦م) الجزء الأول ، ص ٢٦٠ ومابعدها.

(٢) انظر ترجمة للأستاذ ناصر بن فرج في كتاب ، تاريخ التعليم في منطقة عسير جـ١ ، ص٢٤٤، كما يوجد ضمن أوراق مكتبة الباحث ترجمة له تحت رقم (١١١٧).

(٣) انظر كتاب ، تاريخ التعليم في منطقة عسير، جـ١، ص ٢٤٦ ومابعدها، كما يوجد عدة وثائق ضمن مكتبة الباحث ، وجميعها تذكر نبذة عن حياة عبد الرحمن المطوع ، وتوجد تحت الأرقام (١٣٧٠- ١٣٩١).

المبتدئون يعلمهم العم عبد الرحمن وأعمارهم تتراوح بين الخامسة والثامنة ، ثم يُنقلون إلى فصل العم ناصر لتلاوة القرآن وأعمارهم ما بين الثامنة إلى الخامسة عشرة وشغلهم الشاغل تدارس القرآن : فمنهم من قرأ الثلث ، ومنهم نصف المصحف، ومنهم من قرأ ثلاثة أرباعه ، فإذا ختم القرآن تخرج وعمل والده وليمة للمدرسين والجيران والأصدقاء وأرحام والده وكسا المدرسين كأعطية ومكافأة ، ثم ينضم بعد ذلك إلى والده لمساعدته في الزراعة ، أو رعي الماشية أو في التجارة ، أو في حرفة يحترفها والده. ولهذه الحفلة طقوس ، وأهازيج خاصة يرددها رفاقه الطلبة ، ويحضرون إلى داره لابسين أحسن ملابسهم في طابور يرددون أهازيجهم وهي عبارة عن حمد الله ، وشكر المدرس، والبسمة تنفرج بها شفاههم، والبشر يعلو وجوههم، وسرور والد الذي ختم القرآن لاحدّ له . ويعدّ الطالب المتخرج بلغ نهايته إلا أن معلوماته العامة وحصيلته من شتى فنون المعرفة التي تشتمل عليها المناهج اليوم محدودة[1] . وخلال عام (١٣٥٤هـ)، وذلك عندما عين طلعت بك وفاء مديرا لشرطة أبها بعد انتهاء مهمته من ضمن اللجنة الملكية الموفدة من قبل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود (رحمة الله) لتصحيح الأوضاع في منطقة عسير، ونجران، وجازان، وبعد انتهاء مهمته مع اللجنة المشتركة لترسيم الحدود بين اليمن والسعودية عام (١٣٥٣هـ) قام هذا الرجل تطوعا بعمل

(١) هذه المعلومات قد وردت في كتابنا :- تاريخ التعليم في منطقة عسير. الجزء الأول. ص ٥٢ وما بعدها. وطريقة حفل ختم القرآن والفرح والابتهاج بالختام قديمة تعود إلى العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة ، ولم تكن توجد في حاضرة دون أخرى وإنما كانت عادة تمارس في معظم الحواضر والمدن الإسلامية الكبرى والصغرى.

جليل قد لايعرفه إلا القليل، لأنه خارج نطاق عمله كمدير للشرطة[1]، وبعيدا عن مجال اختصاصه الأمر الذي يعطي الدليل المادي على ما يتمتع به من أحاسيس تفيض نبلا، وعواطف تجيش بالخير تجاه مليكه ، ووطنه وبني جنسه فعندما شاهد بأم عينه أنه يوجد بالمدينة " كتاب " مدرسة واحدة فقط يعلم فيها العم ناصر بن فرج والعم عبد الرحمن المطوع، وهو اللقب الذي كان يطلق عليهما، وتعرف مهنتهما به، وشاهد هذه البراعم لاتتلقى من التعليم إلا تلاوة القرآن ، وهذه واحدة من أكبر النعم بالإضافة إلى شيء بسيط من القراءة والكتابة على الطريقة البغدادية التي كانت سائدة في أبها، وخلافها في الخمسينيات من القرن الهجرى الماضي ، ومعلوم أن تثبيت القرآن وعلوم السنة وخلافها من شتى فنون المعرفة لاتثبت في الذهن وترسخ إلا بالتوسع كما وكيفا في التعليم الذي يعرف بالإبتدائي، ثم الإعدادي ، فالثانوي ، وبعد ذلك الجامعي. تدرج طلعت وفاء في اقناع الأستاذين/ ناصر بن فرج وعبد الرحمن المطوع (جزاهما الله أحسن الجزاء ورحمهما رحمة واسعة) بالتوسع في التدريس، وتنويع مواده بزيادة المدرسين، واستطاع من جهة ثانية إقناع المتعلمين من موظفي المالية ، وكاتبي العدل وهم قلة بالتطوع لإعطاء مواد دراسية في المدرسة ، والالتزام بالحضور إلى المدرسة والمشاركة في إعطاء الدروس اليومية في الوقت المحدد بالإضافة إلى أعمالهم الأساسية . فأقنع الموظف بالمالية يونس بن حمد ، وابنه مدني بن يونس وهما من المدينة المنورة وكان الأول محاسباً بالمالية ، وكذلك

(١) للمزيد من التفصيلات عن تاريخ الشرطة في مدينة أبها ، وعن السيد طلعت وفاء ، انظر كتابنا :- أبها حاضرة عسير - دراسة وثائقية. (الفصل السادس).

الموظف محمد صالح سلامة ، ولعله من مكة المكرمة، وكذلك الموظف بالمالية سليمان رجب بالإضافة إلى كاتب عدل أبها عبدالله باذيب وهو من مكة ، وحولوا بجهودهم الذاتية ، وبمحض رغبتهم، ونزولا ، واستجابة لاقتراح مدير الشرطة من مدرسة " بدائية " (كتاب) إلى مدرسة نظامية ، وجهزوا جدول حصص يشتمل على أكثر المواد التي تدرس الآن في التعليم الابتدائي وقاموا ما بين عامي (١٣٥٤هـ) وعام (١٣٥٥هـ) باجراء هذا التحول . وهذه النقلة في طريقة التدريس تركت انطباعا حسنا عند الطلبة ، وأولياء أمورهم ، ولدى أعيان المدينة ، وكبار المسئولين : من أمير ، وقاض ، وصادف اقتران ذلك بالتحاقي بالمدرسة كطالب في عام (١٣٥٥هـ) ولكوني في تلك السنة صغير السن، وكان يدرسنا في الأولى العم عبد الرحمن المطوع، ومن المؤكد أن هؤلاء المتطوعين كانوا يدرسون الكبار الذين كان يطلق عليهم ذلك الوقت الخُتّام، ولعل هذه التسمية جاءت من كونهم أكملوا قراءة المصحف كاملاً فكانت تطلق عليهم هذه الصفة إلا أني سمعت هذا الكلام ، وأكده لي من عايشه وعاصره من الختام وهما الأخ سليمان بن أحمد ميمش، ومحمد بن إبراهيم ، الأول كان أحد كبار موظفي الشئون الصحية الإداريين ، وقد تقاعد منذ بضع سنوات ، والثاني أحد موظفي الجوازات السابقين حيث كان يعمل مأمور قسم الإقامة وقد تقاعد هو الآخر منذ مدة ، فقد كانا من ضمن الطلبة الذين تلقوا التدريس على أيدي هؤلاء المتطوعين، سالفي الذكر الذين اشتركوا في التدريس أيام الكتاب ، مساهمة منهم في الرفع من قدرات الطلبة، وتطوعا بدون أي مقابل مادي سوى الرغبة في فعل الخير استجابة لطلب مدير الشرطة طلعت وفا ، وكان معهم أيضا مدير اللاسلكي أحمد عبيد. اتخذ هذه الخطوة التمهيدية طلعت وفا الذي

كان يشغل مديرا للشرطة ، وكان دوره بارزا في المدينة ، ثم واصل جهوده المشكورة لتحويل المدرسة (كتاب) إلى مدرسة نظامية تابعة لمديرية المعارف العامة، وكانت ذلك الوقت تتخذ من مكة المكرمة مقر لها في عهد الملك عبد العزيز آل سعود (رحمه الله) شأنها في ذلك شأن المصالح الحكومية الرئيسة فقد كان الأمن العام بمديريته العامة ، ووزارة المالية وكان على رأس هذه المصالح الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود عندما كان نائبا عاما لجلالة الملك في الحجاز. علماً بأن " الكتاب " قبل تحويله إلى مدرسة نظامية كان تأسيسه ورواتب المعلمين والبواب، ومصروفاتهم ومتابعة سير أعمالهم كان من قبل إمارة عسير، ومالية أبها، وقاضيها التابعين للحكومة السعودية إلا أن عدم ارتباطها بمديرية المعارف العامة جعل إمكاناتها محدودة وعطاءها ضئيلاً لعدم وجود الدعم المادي، والمعنوي، فاتصل طلعت وفاء بمدير المعارف العام بمكة السيد محمد طاهر الدباغ، واستطاع إقناعه بالعمل على افتتاح مدرسة ابتدائية نظامية تحل محل الكتاب، فرشح عبد الرحيم الأهدل، وعبد المالك طرابلسي، ومحمد إسماعيل الإبي بعد الحصول على موافقة النائب العام في مكة ذلك الوقت جلالة الأمير فيصل حسبما علمت من المدير الأستاذ عبد المالك، وبعد الموافقة أحضرهم طلعت وفاء معه إلى أبها في سيارة كانت وزارة المالية تجهزها لرجال الحكومة في تنقلاتهم[1].

(١) وللمزيد من المعلومات عن عبد الرحيم الأهدل، وعبد المالك الطرابلسي ، ومحمد إسماعيل الأبي ، انظر : كتاب تاريخ التعليم في منطقة عسير، جـ١ ، ص ٢٢٧ ، كما يوجد ضمن مكتبة الباحث العديد من الوثائق الخاصة ببعض تلك الشخصيات، وتوجد تحت الأرقام الآتية (١٢٩٩- ١٣٠٨) مجموعة رقم (١).

بمجرد قدومهم إلى أبها في شهر شوال سنة (١٣٥٥هـ) كانت المدرسة السابقة تشغل غرفتين في مبنى بلدية أبها المكون من طابقين، الأرضي دكاكين تشرف على السوق" سوق الثلاثاء"، وكان في وسط المدينة جنوبي ساحة السوق، ويحاذيها بل ملاصقا لها مبنى مسجد برازان من الجنوب، وبعد معرفة مستويات الطلبة شكلوا منهم ثلاثة فصول الأول للمبتدى، والثاني لمن يحسن كتابة الحروف الأبجدية ، والثالث للختام الذين سبقت الإشارة إليهم، واستأجرت المالية منزل والدي حسن بن مستور (رحمه الله)، وكانت من أنسب الدور ذلك الوقت، وأكثرها ملاءمة للمدرسة فهي تشتمل على صالة داخلية بطول (١٥×٤) أمتار يخرج فيها من ناحيتها الشرقية والغربية ست غرف كبيرة اتخذت فصولا، وإدارة ، وبها فناء خلفي وملاحق غطت حاجة المدرسة ذلك الوقت. وفي عام (١٣٥٧هـ) بعد أن تشكل الفصل الرابع " السنة الرابعة " نقلت المدرسة إلى دار عبد الله هبيش الواقع بحي نعمان باعتباره طابقين ولعله أكثر غرفاً لمواجهة نمو الطلبة ، وتزايد أعدادهم. وفي عام (١٣٥٨هـ) بعد إيجاد الفصل الخامس نقلت المدرسة إلى دار الشيخ عبد الوهاب أبي ملحة الواقعة شمالي ساحة البحار المجاورة بل الملاصقة لداره التي كان يتخذها الشيخ سكنا له ، والمكونة من ثلاثة طوابق ، وهي القائمة حاليا والمقامة بالمونة المحلية، والتي آلت ملكيتها مؤخرا للدولة واتخذت هي ومحتوياتها " كمتحف للآثار" ، والحقيقة أنها جديرة بذلك فهي من خيرة مباني أبها، بل عسير عامة وتمثل النمط المحلي في أسمى صورة، وكان الفصل " السنة " الأولى ، والثانية في الطابق الأرضي قريب من الأفنية ، والفصول الثالث، والرابع ، والخامس في الطابق الثاني، وكذلك الإدارة. وكانت الدرجة (السلم) تنتهي في شمالي صالة

مستطيلة تقع الفصول على جهتيها الشرقية والغربية ، ومقر الإدارة في نهاية الصالة جنوبا بحيث يتمكن المراقب، أو المدير من الإشراف على كل مايجري في المدرسة[1].

والمدرس يتمكن من الانتقال للفصول ، والاطلاع على الجدول ، وأخذ مايلزم من الطباشير، والمقررات ، الأمر الذي جعل حركة التدريس، وانتقال المدرسين تسير بيسر وسهولة ، وكان المدير عبد المالك يؤدي دروس بعض الحصص لاسيما دروس الدين ، والتاريخ، وكان يحلق بنا في آفاق المعرفة مستغلا تعطش الطلبة إلى شرحه ويجذبهم إلى معلوماته الغزيرة ، وله طريقته الأبوية الحانية إلى استمالة الطالب للإنصات إليه، وكان في ربيع عمره وأوج شبابه حباه الله بعقلية راجحة، وقدرات علمية فائقة خاصة في التاريخ، وعلوم الكتاب ، والسنة ، وكان لإخلاصه الكبير، وتفانيهى في واجبه ، وتقديسه المهمة الكبيرة الملقاه على عاتقه ليس فقط تعليم الناشئة، بل تقويم سلوكهم ، وتهذيب طباعهم، وتتويج التعليم بالتربية الحسنة لأن هذا ماكان يتحلى به هو شخصيا ، فيؤثر بالعمل قبل العلم، ويقرن القول بالفعل، فسلوكه مستقيم، وسيرته حسنة ، أدرك بفراسته ومن خلال حنكته وتجاربه التي يقابلها

(١) إذا ما حاولنا معرفة إمكانات الناس في العصور الماضية ، وخاصة في نباء المنازل ومرافقها، وكذلك في تأثيثها وتزيينها، فإننا بلا شك سوف نلاحظ (البساطة) في البناء وفي المواد المستخدمة ، وجميع الإمكانات الأخرى. وللمزيد من التفصيلات عن الحياة الاجتماعية وأنواعها في منطقة عسير، انظر: غيثان بن جريس . عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ١١٠٠- ١٤٠٠هـ/ ١٦٨٨- ١٩٨٠م (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ص ٣٥ ومابعدها.

مايسمى اليوم بالتربية، وعلم النفس، فالمؤمن ينظر بنظرة الله كما في الحديث. سبر أغوار الطلاب ، ومايحيط بهم من أهل ومجتمع فعرف الغني، ومتوسط الحال، والفقير من أولياء أمور الطلبة، وما يعترض الطلبة من صعاب فعمل على تذليلها واستشف من خلال تعامله مع المجتمع والطلبة أن البون شاسع في طبقات الطلاب، وان من بينهم صعب المراس، ولين العريكة والمنضبط، وغير المنضبط، والمجتهد، والمقصر، وأن الطلبة من يشغله أهله لمساعدتهم في أعمالهم اليومية من زراعة، ورعي الغنم، وأعمال حرفية في السوق، فعمل جاهدا على احتواء هذه العوامل غير المتجانسة، والتي لاتتفق ورسالة التعليم، ومايجب أن يكون عليه من انضباط، وتفرغ ففتح صدره لأولياء أمور الطلاب، واستمع منهم ، ومن خلال تعامله مع الطلبة يوميا عرف عن طباعهم الشيء الكثير، فأخذ يعالج الأمور، ويذلل الصعاب ، ويمهد الطريق من خلال تدريسه ومن خلال مواعظه، وإرشاداته ، وتوجيهاته اليومية حتى استقامت الأمور ، وأخذت دروب التدريس تتجه إلى الطريق السوي شيئا فشيئا، واستعمل هو والمدرسون النفس الطويل والتذرع بالمرونة والصبر حتى انتظمت الأمور، وأخذت طرق التدريس تسير في مسارها الطبيعي وبذلك تحولت طرق تدريس الكتاب بجهوده، وقسوته ، ومحدوديته عطاءً وانضباطاً إلى آفاق أرحب ومجالات أوسع وانضباط أكثر حسب الطرق الحديثة[1].

(١) عندما نقلب صفحات التاريخ ونطالع أختلافات وصفات المعلمين والمتعليمن في الماضي، ثم نقارنها بما نشاهده من اختلافات عند بعض المدرسين وطلاب العلم في يومنا الحالي، فإننا لن نجد وجه مقارنة ، حيث كان الأوائل (رحمهم الله) قمما بل جهابذة في سلوكياتهم وعلمهم سواء أكانوا معلمين أم متعلمين .

هذا ، ومادام سياق الكلام عن شيء من سلوكيات ، وقدرات الشيخ عبد المالك وهو المربي الكبير، والأستاذ القدير ، فإن من الإنصاف ذكر شيء عن الأستاذ محمد إسماعيل الأبي فالرجل نشأ ، وترعرع في اليمن " قضاء إب " ، ولظروف سياسية أفرزتها الأوضاع الدولية بعد حرب إسرائيل الأولى أخُرج أهله من اليمن فتطوع أحد المحسنين باليمن ولعله " ابن الوزير"، وله مكانته في بلاط إمام اليمن السابق يحيى حميد الدين، وأخذ الأستاذ المذكور محمد إسماعيل الإبي ، ومعه أخته وقام بتسليمهما إلى إمام الحرم أبي السمح في مكة المكرمة، حيث أشرف على تربيته وتعليمه ، وما فطر عليه محمد إسماعيل من ذكاء مفرط، ولأن عمل الإمام المذكور " أبي السمح " في الحرم المكي، ومن المؤكد أن داره وهي التي نشأ فيها الأستاذ محمد إسماعيل الإبي يغلب عليها الطابع الديني، وفي ظل هذه الأجواء كانت نشأة محمد المذكور، فقطع شوطاً كبيراً في العلم، والمعرفة وأصبح لايبارى في علوم الأدب، والشعر، والتاريخ ، ولايجارى في العلوم الشرعية، وذلك في زمانة ، وأمثاله المتعلمون قلة، مما ساعده وأهَّلَه على أن يؤلف مقطوعات شعرية ، ومواد نثرية للطلاب في شكل حوار، ويوزع الأدوار على الطلاب بما يبدعه من شعر، ونثر وقصص، ومسرحيات، وأنشطة طلابية متنوعة فهو ينبوع للعلم والمعرفة يرتوي بنبعه الصافي كل من خالطه أو عاشره في المدرسة، أو داره أو الشارع ، وصار قلب المدرسة النابض، ونجمها الساطع بما يثيره من إبداعات في حواراته، ومناقشاته، وصار المدرسون ، وكبار السن من الطلبة يلازمونه للاستفادة من معلوماته الثرةً ، ومعارفه الغزيرة التي ما فتىء يبذلها لهم ليلاً، ونهاراً، ولايبخل بإتحافهم بكل طريف، ومفيد وكان من ضمن من لازمه ملازمة الشيء ظله :

كل من الأستاذ محمد أحمد أنور[1]، والأستاذ موسى بن ناصر وهما ممن كان يعمل في الكُتّاب ثم تم إلحاقهما بمدرسة أبهاالأميرية بترشيح من المدير عبد المالك الطرابلسي، ولازمه أيضا من ضمن أول دفعة تخرجت عام (١٣٦٠هـ) كل من الطالبين النجيبين: السيد محمد إبراهيم النعمي ، ومفرح بن محمد الخلفي[2] وقد رشحا مدرسين وبعثا لمديرية المعارف العامة حيث أجريت لهما مقابلة واختبار من قبل مدير المعارف العامة ذلك الوقت السيد محمد طاهر الدباغ ، ووافق على تعيينهما مدرسين وكان تخرج أول دفعة من السنة الخامسة قبل افتتاح السنة السادسة ثمانية أشخاص هم : (١) سعيد عبد الوهاب أبوملحة (٢) سليمان أحمد ميمش (٣) السيد أحمد إبراهيم النعمي (٤) محمد عبده عسيري وقد عين هو الآخر مدرسا (٥) مفرح بن محمد الخلفي (٦) يحيى بن حسن بن مستور (٧) سليمان أحمد فايع (٨) إبراهيم بكر رجب. وأعطوا جميعهم شهادات التخرج موقعة من مدير المدرسة والمدرسين، وذلك بخط مدير مدرسة رجال ألمع الأستاذ محمد عمر رفيع وحلاها بجمل مختارة[3]، واستعمل فيها الخط الفارسى، والرقعة ، والنسخ. وكانت المدرسة

---

(١) انظر ترجمة مطولة للأستاذ / محمد أحمد أنور في كتاب : - تاريخ التعليم في منطقة عسير، الجزء الأول ، ص ٢٣١ ومابعدها.

(٢) وعن كل من الأستاذين / محمد إبراهيم النعمي ومفرح بن محمد الخلفي انظر الملحق رقم (٤) في كتاب:- أبها حاضرة عسير...دراسة وثائقية . وهذا الملحق عبارة عن نبذة كتبها لنا الأستاذ/ محمد أحمد أنور أورد فيها ترجمة مختصرة لكل من الأستاذين الآنفي الذكر.

(٣) مقابلة مع الأستاذ / يحيى بن حسن مستور بمنزله الكائن بحي شمسان بمدينة أبها ، كذلك من نبذة كتابية زودنا بها في تاريخ التعليم في منطقة عسير، ص ٥٧. أيضاً انظر ترجمة الأستاذ/ محمد عمر رفيع ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ ومابعدها.

تسمى بالأميرية ثم تحول مسماها مؤخرا إلى المدرسة السعودية وهي أول مدرسة نظامية افتتحت في أبها استمرت من أواخر عام (١٣٥٥هـ) إلى عام (١٣٧٥هـ). تخرج الطلاب من السنة الخامسة والمقررات مكثفة ، والإقبال من الطلبة كبير، والمنافسة على أشدها والمدة المقررة للدراسة من حيث الساعات نهارا والسنة الدراسية السنوية أطول ، ووسائل اللهو ، واللعب شبه معدومة حتى إن الطالب ليحاسب على عبثه ، ولعبه الذي ينجم عنه مضيعة لوقته أو إضرار الآخرين، فمجالات العبث واللهو واللعب ضيقة ، ومحصورة في أضيق الحدود ، فالغالب على الحياة طابع الجد يدخل الطالب المدرسة فيحس بهيمنة النظام ، وحياة الجد يصغي إلى المدرس باهتمام زائد، يحترم المدرس كاحترامه أباه،ويجد ثمرة ذلك لدى المدرس عطفا وحنوا. يسود المدرسة جو من الاحترام المتبادل يتجمع الطلبة في فناء المدرسة صباحا ، والغالب منهم ممسك كتابه للاستذكار وبعض منهم يمارس شيئا من الألعاب الخفيفة دون إحداث ضجة أو ضوضاء ، فالمدير عبد المالك واقف بالمرصاد لكل من تسول له نفسه وتجاوز حد الاعتدال باللعب، لاسيما إذا وصل هذا التجاوز إلى إلحاق الضرر بالآخرين ، أو اقتراف مايخل بالمروءة، ويثلم الشرف، وكانت الدراسة تبدأ بعد شروق الشمس مباشرة، وعند الانصراف يشكل الطلبة طابورا وعليهم عرفاء، ومراقبون يصطحبونهم إلى المسجد الجامع، لأنه قريب من المدرسة ، فيتوضأ الطلبة ، ومن ثم يتقاطرون إلى المسجد للصلاة ، والمراقبون ينظمون مسيراتهم ، ويلاحظون عدم تشويشهم على المصلين، وبعد الصلاة ينصرف كل منهم إلى داره . وفي فترة من الفترات كانت الدراسة فترتين : صباحية إلى الظهر، ومسائية إلى العصر، وأحياناً عند استمرار الدراسة إلى مابعد صلاة الظهر

يؤدي الجميع صلاة الظهر في بهو المدرسة جماعة يؤمهم الأستاذ / عبد المالك، ويوجد أمام المدرسة فناء فسيح لأنشطة الطلاب في الحفلات التي تقام في مناسبات الأعياد، وينتشر الطلاب في ساحة البحار الموجودة الآن موقفا للإمارة ، لآن مبنى المدرسة يشرف عليها من الناحية الشمالية ، وهو المبنى القائم الآن بجوار قصر الشيخ عبد الوهاب أبو ملحة[1].

أما أثاث المدرسة، وأدواتها فهي عبارة عن طاولات مستطيلة مشتركة لخمسة طلاب بها خمسة أدراج يقابلها كرسي مشترك لخمسة طلاب، وهي من صنع محلي، كما يوجد في كل فصل (سبورة) مع طباشير، وتوزع الإدارة على الطلاب الكتب المقررة ، وأذكر من المؤلفين عبد الله المطلق للمقررات الدينية، والمطالعة أحمد السباعي، كما أذكر من المقررات درساً تحت مسمى التهذيب يختُار فيه آيات قرآنية وكريمة، وأحاديث شريفة ، وشعر، وقصص تصور القيم الرفيعة، وتحث على المثل العليا، ودرساً للصحة يشتمل على مبادىء النظافة ، وطرق الوقاية وكانت المقررات مكثفة ، وكانت إدارة المدرسة تخصص رحلات برية يخرج الطلبة ، والمدرسون في أحد البساتين المشهورة حول مدينة أبها كالبصرة ، وعلى ضفاف وادي أبها حيث الغدران والمياه. والطلاب تحت رعاية المدرسين فنحن ندرس ذلك الوقت الفقه في كتاب عمدة الفقه، والمعروف أنه يدرس حاليا في الثانوية العامة ، ونقطع شوطا كبيرا في دراسة النحو (القواعد)، ودرس الإنشاء بما يعرف اليوم بمادة التعبير،

(١) شاهد الباحث المبنى الذي كان مستخدما بالمدرسة ، وكذلك المبنى المجاور له، ولازالت تلك المباني ماثلة للعيان حتى الآن.

وكانت تدرس الجغرافيا تحت مسمى " تقويم البلدان "، وكفاءة المدرسين العلمية والتربوية عالية ، فما نقص من المقررات يختارون من أمهات الكتب قطعا مناسبة، ، وينقلها الطالب في دفتره، وندرس من الحساب الأعمال الأربعة: جمع ، وطرح، وضرب ، وقسمة "، والكسور العشرية والاعتيادية ، وكانت الاختبارات شهرية، ويعاد الترتيب على المقاعد بحسب الدرجات شهريا ، مما يخلق منافسة بين الطالب، كما أن المقررات جميعها حفظ " عن ظهر غيب "، وتستهل الدراسة يوميا بالقرآن الكريم ، ولمدة حصة كاملة[1].

وقد استمرت المدرسة على هذا المنوال تخرج الطلاب منها من السنة الخامسة فقط ولمدة عشر سنوات ، ولم يحدث فيها الفصل السادس إلا في عام (١٣٦٥هـ) ، حيث لم يتخرج من أول سنة إلا شخص واحد هو السيد محمد إبراهيم النعمى ، وأول دفعة من السادسة تخرجت عام (١٣٦٦هـ) ، وكان عددهم اثنى عشر طالبا كان منهم محمد النعمي وسعيد بن عبدالله بن مسفر الذي روى لي المعلومة ، والأول هو رئيس كتابة العدل بمنطقة أبها ، والثاني (سعيد بن مسفر) زميله في المدرسة وفي العمل، وكان رئيس كتابة العدل هو الآخر خلفا (لمحمد النعمي) حتى طلب التقاعد منذ سنة، ولقد كان لمجهودات هذين الرجلين البارزة في تنمية كتابة العدل بأبها منذ كانت نواة ، وتحسين أداء الخدمة فيها بما يتماشى مع التعليمات كان لذلك ، الأثر الكبير في توسيع العمل فيها، ورقيه كماً وكيفاً .وهذان الرجلان ايضاً

(١) هذه المعلومات قد سمعها الباحث من ابن مستور ودون أغلبها في كتاب تاريخ التعليم في منطقة عسير. (الجزء الأول) .

صاحبا التدرج في كتابة العدل وبناء العمل الإداري والهيكل التنظيمي، وتوسيع قاعدته أفقياً، ورفع درجة الأداء رأسياً حتى وصلت إلى درجة ومستوى ترضي كل منصف، خاصة وأنها تشتمل على مقدرات الدولة والأمة، وكان لما يتحليان به من إخلاص ونزاهة ، واستقامة ، وما يتمتعان به من قدرات إدارية ، وما اكتسباه من خبرات لتسيير الأمور بالطرق الشرعية حسبما رسمته حكومتنا السنية، كان لذلك أكبر الأثر في سير الأمور في الدرب السوي[1].

وللحقيقة ، وللتاريخ فإن المتخرجين من هذه المدرسة " الأميرية سابقا ، السعودية حاليا" على مدار خمسة عشر سنة من عام (١٣٦٠هـ) إلى عام (١٣٧٥هـ) كان أغلبهم على هذا المنوال ويتصفون بما وُصِف به كاتبا العدل ، واستطاعوا اكتساب قدرات إدارية ، وخبرات بالشئون المالية وخلافها من خلال ممارستهم شتى الأعمال المختلفة، الأمر الذي هيأهم للقيام بالأعمال الإدارية والمالية المتنوعة في جهاز الإمارة ، ومكاتب المحكمة ، والشرطة ، والجوازات ، والأحوال المدنية ، والمساعدة في إدارة دفة أعمال " مالية أبها ". وهذه الإدارات وغيرها التي كانت قائمة خلال عقود الستينيات، والسبعينيات، والثمانينيات الهجرية ، فلقد كان من بينهم سيف عبده الألمعي عند ممارسته إدارة معتمدية المعارف بأبها كمساعد للمعتمد عيسى فهيم في أثناء تحويلها من مديرية مدرسة إلى معتمدية، فاختار نخبة من المدرسين الأكفاء للاستعانة بهم في الأعمال الإدارية ، وشكل بهم أقساما ارتفع بهم الأداء ، وساعد على

(١) الباحث عرف كلاً من الأستاذين / محمد النعمي ، وسعيد بن مسفر ، وكلاهما يتصف بالخلق الحميد ولطف المعشر وحسن المعاملة.

تحسن العطاء، ومكن الإدارة الجديدة من أداء واجبها كاملا وحقق الفائدة المرجوة من التجديد ريثما تحدث الوظائف اللازمة، لأن الأستاذ عيسى فهيم وإن كان يتمتع بقدرات علمية عالية فلقد كان للأستاذ سيف الألمعي في المساعدة الكبيرة في الشئون الإدارية والمالية دور بارز. ومنهم الأستاذ محمد بن عبد الله الحميِّد رئيس النادي الأدبي حاليا الذي أدى أدواره بنجاح : مدرسا ، ثم وكيلا للمدرسة الفيصلية ، ثم مديرا لها ثم مديرا للتعليم بأبها.ومنهم ايضا محمد حسين قدح الذي تدرج في وظائف هامة في وزارة المالية حتى وصل مدير عام أملاك الدولة بوزارة المالية ، ومنهم سعيد مبارك مروح الذي تدرج في وزارة المالية حتى وصل درجة " خبير مالي " في الوزارة ، ومنهم إسماعيل محمد المعني الذي وصل درجة سفير في "اليمن" بعد أن تدرج في وزارة الخارجية السعودية ، ومنهم الشيخ سعيد بن عبد الوهاب أبو ملحة الذي تدرج في الوظائف المالية بمالية أبهاحتى وصل " مدير الزكاة والدخل "، ومنها أسندت إليه رئاسة ماليات الجنوب بعسير، فأداها على أكمل وجه ، ومنهم يحيى حسن مستور الذي شغل على التوالي مديرية الجوازات والجنسية ، فرئاسة بلدية مدينة أبها، ثم مدير مشروع كهرباء أبها وذلك لمدة عشرين سنة ، ومنهم عشرات المدرسين، ووكلاء إدارات المدارس، ومفتشون مركزيون في إدارة المدرسة كما يطلق عليهم سابقا، "و موجهو تربية " حاليا ومديرو المدارس - والموجهون وهم كثر. وقد ساهموا في إدارة دفة العمل الإداري في جهاز الإمارة " إمارة عسير" بكفاءة عالية ونزاهة : كعبد الله بن محمد بن زياد، ويحيى بن علي الحفظي ، وهادي بن حسن، وصالح الفرحان، وخلافهم، وما قلته عن الإمارة ينسحب على جهاز المحكمة الإداري فعبد القادر الحفظي، والسيد

محمد إبراهيم النعمي، وإبراهيم الشعفي ، وغيرهم كان لهم دور بارز في إدارة دفة أعمال المحاكم خلال العقود الثلاثة المشار إليها وربما فترة من التسعينيات[1].

ولايفوتني إضافة الشئون الصحية ، فإن أحدهم وهو سليمان بن أحمد ميمش بما اكتسبه من خبرات إدارية ومالية ظل محور العمل، ومرتكزه الإداري كعضد مساند لمديري الشئون الصحية المتعاقبين خلال حقبة العقود الأربعة المشار إليها ، ومنهم حسين بن ظافر الأشول الذي وصل درجة عالية في شركة أرامكو وتدرج في وزارة الزراعة حتى وصل درجة " مدير عام " وهو الآن عضو في نادى أبها الأدبي " ومنهم العضو الثاني للنادى وهو أحمد إبراهيم مطاعن فقد اشتغل رئيسا لأحد أقسام الشرطة، وعمل في وزارة الصحة ، وأسندت إليه رئاسة بلدية مدينة أبها فترة من الزمن. ولآن مالية أبها كانت مركزاً مالياً يمون جميع الإدارات الحكومية بالمال من رواتب ومصروفات ، ومقرارات ، وإليها تنتهي قرارات التعيين وطي القيد، والترقية ، ومصاريف جميع المصالح الحكومية، فإنها محط أنظار وآمال الجميع ، لارتباط المصالح العامة، والخاصة بها، والمال- كما هو معلوم- عِصب الحياة، فقد عمل بها بالإضافة إلى من كانت توفدهم وزارة المالية ومقرها" مكة المكرمة" من الموظفين القياديين الحجازيين الأكفاء : كإبراهيم إسلام، وعمر مهدي، وياسين طه، وعبد القادر خورشد ، وحسين سمكري عمل مع هؤلاء من

(١) لقد فصلنا الحديث عن المؤسسات الإدارية السالفة الذكر، وعن بعض الرجال الذين وردت أسماؤهم ، وذلك في كتاب :_ أبها حاضرة عسير... دراسة وثائقية.

خريجي المدرسة المذكورة، وفي الفترة المشار إليها كل من عبدالله بن عبد الرحمن المطوع، وعبدالله بن علي بن حنفور، ويحيى بن محمد السرحانى، ويحيى بن حسن مستور، واستطاعوا مسايرة رؤسائهم، وزملائهم من مكة واكتساب الخبرات في إدارة الأمور المالية، وحققوا الفائدة المرجوة منهم على أكمل وجه[1].

أما ضباط الدفاع والأمن العام فبلغت أعدادهم العشرات : مابين رواد ، وعقداء، وعمداء ، وألوية ، بل لقد عمل أحدهم وهو اللواء محمد الغرابي في شرطة الرياض أكثر من عشرين سنة أكثرها مديرا لشرطة الرياض، وقد تسلم أحدهم وتقلد أكبر رتبة عسكرية وهي "فريق" وأسند إليه مدير شرطة جدة، وقيادة قوة المواسم وهو الفريق دليم بن علي عسيري. وهذا ماأسعفتني الذاكرة بإيرادهم، ومن المؤكد أن الأعداد أكثر مما ذكرت، وعسى أن يكون إيرادي لبعض الأسماء يشع ومضة نور لمن يعرف شيئا عن الباقين فيسهم بما لديه ممن لم ترد أسماؤهم[2].

(١) وعن إدارة المالية بأبها فقد اطلعنا على عشرات الوثائق المتعلقة بشؤون الأموال في منطقة عسير خلال القرن الرابع عشر الهجري، وجميع تلك الوثائق توجد ضمن أوراق مكتبة الباحث ، كما زودنا مدير مالية أبها الحالي ، الأستاذ/ محمد بن عبد الوهاب أبو ملحة ، بنبذة مختصرة عن التطور التاريخي للمالية منذ تأسيسها . وتوجد هذه المذكرة ضمن أوراق مكتبة الباحث تحت رقم (٢٠٠٧).

(٢) للمزيد من التفصيلات عن الدفاع والمدرسة الحربية في أبها خلال القرن الهجري الماضي، انظر: كتاب: تاريخ التعليم في منطقة عسير، الجزء الأول . ص ١٨٦ وما بعدها.

هذه الكوكبة المباركة التي استطاعت بتوفيق الله ، ثم بفضل ماغرس فيها من بذرة مباركة انعكست على مابذلوه من عطاء مقرون بالإخلاص، والنزاهة في تغطية أعمال إدارات أبها الحكومية من خلال العقود الثلاثة المشار إليها سلفا، حلت تدريجيا مع من سبقهم في إدارة الأعمال الحكومية المتنوعة خلال العقد الرابع ، والخامس في القرن الهجري الماضي ممن تلقوا دراستهم في المدرسة الرشدية في أواخر عهد الدولة العثمانية ، وقد علمت من بعضهم مثل : العم عبدالله إلياس، وسعيد الغماز، وعلي المغيدي، أنهم كانوا يدرسون باللغة التركية، وأن مدة الدراسة ست سنوات سنتان ابتدائي ، وسنتان متوسط، وسنتان عالي. هكذا كان سير دراستهم ومدتها، ومن حسن الحظ أن اللغة كما هو معلوم التركية كانت بالأحرف العربية قبل أن يحولها" أتاتورك" للأحرف اللاتينية، ولهذا كانت خطوطهم حسنة، واستطاعوا تحسين تعبيرهم من خلال الممارسة وصقل مواهبهم بمخالطة المتعلمين في زمانهم[1].

وهؤلاء الدارسون أيام الدولة العثمانية هم جيل المعاناة والمقاساة، والمكابدة معاناة شظف العيش، ومقاساة اضطرابات الأحوال الأمنية ، ومكابدة قسوة الحياة لتدني الأمور المعيشية والصحية، فهذه الأمور متضافرة أدت إلى شل حركة العلم والتعلم، إلا في أضيق الحدود. فقد كان على رأس

(١) سمع الباحث معلومات مشابهة لما ذكر ابن مستور من رجلين عاشا منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، وماتا عام ١٤١٧هـ ، وهما :- الشيخ/ عبد المالك بن عبد القادر الطرابلسي، والشيخ / عبد الله بن عبد الرحمن بن إلياس.

قائمة المذكورين العم عبد الله عبد الرحمن إلياس، وزملاؤه في الدراسة ورفاق دربه في العمل : كل من محمد رضا، والحسن بن عثمان ، وسعيد الغماز، والشريف عبد الله، والشريف علي ، والوالد حسن بن مستور هؤلاء الأشخاص المحدودون وقد يكون معهم من لم يحضرني اسمه الآن في حدود ثلاثة أو أربعة أشخاص يؤدون أعمالاً مساندة، وكان على رأس الجميع رئيس مالية أبها الشيخ عبد الوهاب بن محمد أبو ملحة، فقد استطاعوا بعزيمة الرجال القوية وهمة صادقة مقرونة بالإخلاص أن ينشئوا جهاز للمالية خلال عقد من منتصف الأربعينيات إلى منتصف الخمسينيات في القرن الهجري الماضي وكانت أعباء ذلك الجهاز تفوق جهود عشرات الموظفين، منهم المعنيون باستقبال زكوات الحبوب، والمواشي لمنطقة عسير المترامية الأطراف من ظهران جنوبا إلى زهران شمالاً ومن تثليث شرقا إلى درب بني شعبة غربا مئات القرى، ويقطنها مئات الآلاف من الأفراد في مساحة لاتقل عن(٤٠٠×٤٠٠) كيلو متر، وتنظيم صرفها على متطلبات الحكومة من إمارات وأخوياء ، وعساكر دفاع، وشرط ، ودوريات ، وأفراد هجانة التي كانت تؤدي أعمال رجال الشرطة قبل ايجادها، ولعلها منسوبة إلى الهجن وهي " الجمال واسطة تنقلاتهم "، وذروة الجهود بذلوها أعوام (١٣٥٢هـ و١٣٥٣هـ و١٣٥٤هـ) عند تجهيز العساكر النظامية في شكل أخوياء، ورجال القبائل الذين استنفروا للدفاع، وهم بالآلاف في قمع حركة الإدريسي، والمساهمة في إطفاء نار الخلافات المتأججة مع اليمن عام (١٣٥٣هـ)، وجزء من (١٣٥٤هـ)،ومنهم القائد حيدر أفندى الذي أسندت إليه قيادة الدفاع بأبها في أوائل العقد السادس من القرن الهجري الماضي حتى حل محله القائد عزيز بك الذي جيء به من مكة المكرمة : أما الأول فهو من

مواليد أبها ومتخرج من الرشدية ، وربما درس الأمور العسكرية في الأستانة ومنهم أيضا محمد أحمد قدسي الذي شغل مدير شرطة جازان في أواخر الخمسينيات وجيء به قائدا لقوة شرطة أبها في أوائل الستينيات ، ثم رقي مديرا لشرطة أبها بعد وفاة المدير السابق حسين حلمي[1].

ومنهم حسين عبد الله قدح الذي أنشأ جهاز إمارة القنفذة الإداري في عهد الأمير" ابن زعير" في أوائل الخمسينيات الهجرية من القرن الماضي ، ومنها نقل إلى إمارة جازان في عهد الأمير الشويعر، وقد نقل إلى جهاز إمارة أبها الإداري في أوائل السبعينيات الهجرية، وشغل رئاسة بلدية أبها فترة من الزمن. ومنهم من أسرة آل خنفور ثلاثة هم رشدي ،وعلى بن عبدالله ، وعبدالله بن علي بن حسن قاموا بأعمال كتابية في الماليات متنوعة ، وكان أبرزهم الأخير حيث عمل إداريا، ومحاسبا بارزا في الجيش في الخمسينيات، وفي أبها في الستينيات، ومنهم محمد دماك الذي عمل في سلك الشرطة، ووصل رتبة رايد ، وأحمد حيدر، ومحمد حيدر، ومحمد بن عزيز، وقريبه محمد أمين بن عزيز وحسين أفندى، ومنهم من أدار مراكز مرموقة كأحمد أبو هليل الذي أدار رئاسة ديوان إمارة عسير في العقد السادس الهجري من هذا القرن الماضي ، ثم رئاسة مالية أبها في العقد السابع بالإضافة إلى أعماله السابقة في إدارة مالية القنفذة " مدير مالية وجمارك" في العقد الخامس من القرن نفسه ، ومنهم أخوه (صالح أبو هليل) الذي تدرج

---

(١) وللمزيد من التفصيلات عن الشرطة ، انظر ما ذكرنا عنها في كتابنا:- أبها حاضرة عسير... دراسة وثائقية (الفصل السادس)

في الأعمال المالية حتى وصل " مدير عام خزينة" بوزارة المالية التي حل محلها مؤسسة النقد حاليا، وذلك في الستينيات الهجرية ومنهم أيضا حسين أفندى الذي اشترك في لجنة تحديد حدود اليمن عام (١٣٥٣هـ)، ومنهم حسين بن علي النحاس الذي عمل مدير الشئون الإدارية والمالية في شرطة أبها منذ تأسيسها عام (١٣٥٥هـ) حتى أواخر العقد السادس من هذا القرن، وشد من أزر مديري الشرطة بدءا من طلعت بك وفا ، فسالم شوقي، ثم صالح باخطمة في الخمسينيات ، وحسين حلمي في الستينيات، وكان دوره بارزا في تدعيم الأمور المالية والإدارية ، ومساهمته في إدارة الأحوال الجنائية كانت ملموسة الأمر الذي أكسبه ثقة مديري الشرطة المشار إليهم[1]. وبالتالي يمكننا أن نوجز الحديث عما سبق ذكره، فنقول :

ان مجموعة المعاناة المشار إليها سلفا استطاعت إدارة الأعمال الإدارية، والمالية طيلة عقد الأربعينيات، والخمسينيات في كافة إدارات ومصالح أبها الحكومية العسكرية والمدنية، فبالإضافة إلى الأحوال السيئة التي صاحبت أوقات تعليمهم أيام الدولة العثمانية فإن إداراتهم لهذه الأعمال كانت في ظل ظروف في منتهى القسوة، فكابدوا معاناة في التعليم، ومقاساة في أوقات العمل للأسباب المشروحة سلفا واستطاعوا بعون الله إيصال السفينة إلى منتصف الطريق.

(١) هناك عشرات الرجال الذين عاشوا في مدينة أبها خلال القرن الرابع عشر الهجري، وكان لهم صولة في كثير من الأمور السياسية والحضارية ، وحبذا لو قام أحد الباحثين فتصدى لموضوع دراسة عنهم، وعما خلفوا من آثار حسنة للأجيال التالية لهم.

كذلك جيل عبد المالك طرابلسي رائد ومؤسس أول مدرسة نظامية عام (١٣٥٥هـ) وخريجو هذه المدرسة - والمسماة المدرسة الأميرية والتي حول اسمها مؤخرا إلى المدرسة السعودية- تابعوا المسيرة بتوجيه ، ومساندة من المجموعة السابقة ، واستطاعوا تغطية ما تتطلبه الأعمال الحكومية في شتى الإدارات، والمصالح التي كانت قائمة ذلك الوقت طيلة العقود الثلاثة السادس، والسابع، والثامن الهجرية حسبما سبق شرحه، وتمكنوا بفضل الله من إيصال السفينة إلى بر الأمان في مننتصف التسعينيات وبالتحديد في عام (١٣٩٦هـ) افتتح في أبها فرعي جامعتي الإمام محمد بن سعود، وجامعة الملك سعود، وتبعه كلية لمعلمين، وكليات تربية البنات، وكلية العلوم الطبية ، والكليات التقنية، ، والمعهد الثانوي للمراقبين، والمعهد الثانوي الصناعي، والمعهد الثانوي التجاري وهذه المؤسسات التعليمية وفروعها وأقسامها التي ربما تربو على ثلاثين تخصصا متنوعا يغذيها مئات المدارس الابتدائية ، فعشرات المتوسطات، والثانويات مما شكل رافدا غزيرا وينبوعا ثرا دفع بالآلاف من المتخرجين الذين أخذت أفواجهم تتبارى في الانتظام لإدارة دفة الأعمال في المصالح الحكومية في شتى التخصصات من إدارية ، ومالية ، وطبية ، وقانونية، وفنية، وزراعية ، ومهنية ، وهندسية، وصناعية، وتعليمية وغيرها، وانعكس ذلك على الساحة الأدبية وانطبعت بصماته على صعيد الثقافة العامة، والوعي العام.

وللحقيقة ، والتاريخ فإن أنشطة وزارة المعارف، والرئاسة العامة لتعليم البنات بوحي من سياسة حكومتنا الرشيدة، وبفضل خطة حكيمة مدروسة، وبتوفيق قبل ذلك من الله استطاعت إيصال رسالتها، وتوسيع نطاق خدماتها التعليمية التي غطت السهل، والجبل ، والمدن والقرى، والهجر، والبادية التي

أخذت على عاتقها ملاحقتهم بخدماتها التعليمية أينما كانوا وحيثما وجدوا ومهما رحلوا، وبعدت بهم الشقة فلا مناص من متابعتهم ولامفر من ملاحقتهم حتى صار التعليم كالهواء يسايرهم أينما حلوا ويعايشهم حيثما ذهبوا صغارا، وكبارا، أطفالا، وشبانا، ورجالا، وكهولا نساء، أو رجالا فتحقق بذلك ماتصبو إليه حكومتنا المباركة أيدها الله برجالها المخلصين.

وإنتشر التعليم، ودخل معه الوعي، والعلم ، والمعرفة ، والثقافة إلى كل بيت بفضل الله ثم بعون الحكومة الرشيدة، وذلك بتعيين آلاف المدرسين، والمدرسات، وبحسن تصرف وزارة المعارف ، والرئاسة العامة للتعليم البنات. ومع نور العلم والمعرفة تحسنت الأوضاع الاقتصادية، ونمت الأحوال المادية فانعكس ذلك على الأحوال المعيشية، وتشييد المساكن بعد أن شقت لها الطرق، وأوصلت لها خدمات الكهرباء، والهاتف وصار تحولا بل نقلة كبيرة فأصبحت المدن، والقرى ، والهجر متساوية لاتلمس الفرق بينها ، وهذا من فضل الله ثم بفضل رعاية واهتمام حكومتنا الموفقة، ومابذلته من جهود مضنية ، وما أنفقته من مبالغ سخية وما أنشأته من منشآت ضخمة، فلها من المواطنين الشكر، والتقدير ، ومن العلي القدير (إن شاء الله) الأجر الوفير.